

## الباب الخامس

### في جواب أرباب هذا القول لأصحاب القول الأول

قالوا : أما قولكم : إن قولنا هو الذي فطر الله عليه عباده بحيث لا يعرفون سواه ، فالمسألة سمعية لا تعرف إلا بأخبار الرسل ، ونحن وأنتم إنما تلقينا هذا من القرآن ، لا من المعقول ولا من الفطرة ، فالمتبع فيه ما دلَّ عليه كتاب الله وسنة رسوله ، ونحن نطالبكم بصاحب واحد ، أو تابع أو أثر صحيح أو حسن ، يصرِّح بأنها جنة الخلد التي أعدّها الله للمؤمنين بعينها ، ولن تجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وقد وجدنا من كلام السلف ما يدل على خلافه ، ولكن لما وردت الجنة مطلقة في هذه القصة ، وافقت اسم الجنة التي أعدّها الله لعباده في إطلاقها ، وبعض أوصافها ، فذهب كثير من الأوهام إلى أنها هي بعينها ، فإن أردتم بالفطرة هذا القدر لم يفسدكم شيئاً ، وإن أردتم أن الله فطر الخلق على ذلك ، كما فطرهم على حسن العدل وقبح الظلم ، وغير ذلك من الأمور الفطرية ، فدعوى باطلة ، ونحن إذا رجعنا إلى فطرنا لم نجد علمها بذلك ، كعلمها بوجوب الواجبات ، واستحالة المستحيلات .

وأما استدلالكم بحديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقول آدم : « وهَلْ أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم ؟ »<sup>(١)</sup> فإنما يدل على تأخر آدم [ عليه السلام ] عن الاستفتاح للخطيئة التي قد تقدمت منه في دار الدنيا ، وأنه بسبب تلك الخطيئة حصل له الخروج من الجنة ، كما في اللفظ الآخر : إني نهيت عن أكل الشجرة فأكلت منها ، فأين في هذا ما يدل على أنها جنة المأوى بمطابقة ،

(١) أخرجه مسلم (١٩٥) في الإيمان : باب (٨٤) أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

أو تضمن أو استلزام ، وكذلك قول موسى له : « أخرجتنا ونفسك من الجنة » (١) فإنه لم يقل له : أخرجتنا من جنة الخلد .

وقولكم : إنهم خرجوا إلى بساتين من جنس الجنة التي في الأرض ، فاسم الجنة وإن أطلق على تلك البساتين ، فبينها وبين جنة آدم ما لا يعلمه إلا الله ، وهي كالسجن بالنسبة إليها ، واشتراكهما في كونهما في الأرض لا ينفي تفاوتهما أعظم تفاوت في جميع الأشياء .

وأما استدلالكم بقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا ﴾ [ البقرة : ٣٦ ] عقيب إخراجهم من الجنة ، فلفظ الهبوط لا يستلزم النزول من السماء إلى الأرض ، وغايته أن يدل على النزول من مكان عالٍ إلى أسفل منه ، وهذا غير منكر ، فإنها كانت جنة في أعلى الأرض ، فأهبطوا منها إلى الأرض .

وقد بينا أن الأمر كان لآدم [ عليه السلام ] وزوجه وعدوهما ، فلو كانت في السماء لما كان عدوهما متمكناً منها بعد إهباطه الأول لما أبى السجود لآدم [ عليه السلام ] . فالآية أيضاً من أظهر الحجج عليكم ، ولا تغني عنكم وجوه التعسفات والتكلفات التي قدرتموها ، وقد تقدمت .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [ البقرة : ٣٦ ] ، فهذا لا يدل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض ، فإن الأرض اسم جنس ، وكانوا في أعلاها وأطيبيها وأفضلها ، في محل لا يدركهم فيه جوع ، ولا عُري ولا ظمأ ولا ضحى ، فأهبطوا إلى أرض يعرض فيها ذلك كله ، وفيها حياتهم وموتهم ، وخرجهم من القبور ، والجنة التي أسكنها لم تكن دار نصب ولا تعب ولا أذى ، والأرض التي أهبطوا إليها هي محل التعب والنصب ، والأذى وأنواع المكاره ، وأما قولكم : إنه سبحانه وتعالى وصفها بصفات لا تكون في الدنيا ، فجوابه : إن تلك الصفات لا تكون في الأرض التي أهبطوا إليها منها وأما قولكم : إن آدم [ عليه السلام ] كان يعلم أن الدنيا فانية منقضية ، فلو كانت الجنة فيها لعلم كذب إبليس في قوله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩) في الأنبياء : باب (٣١) وفاة موسى وذكره بعد .

على شجرة الخلد؟ ﴿ [ طه : ١٢٠ ] ، فجوابه من وجهين :

أحدهما : أن اللفظ إنما يدل على الخلد ، وهو أعم من الدوام الذي لا انقطاع له ، فإنه في اللغة : المكث الطويل ، ومكث كل شيء بحسبه ، ومنه قولهم : رجل مخلد ، إذا أسن وكبر ، ومنه قولهم لأثافي الصخور : خوالد . لطول بقائها بعد دروس الأطلال . قال :

إلا رماداً هامداً دفعت عنه الرياح خوالد سحُم<sup>(١)</sup>

ونظير هذا إطلاقهم القديم على ما تقدم عهده ، وإن كان له أول ، كما قال تعالى : ﴿ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾<sup>(٢)</sup> [ يس : ٣٩ ] ، ﴿ وَإِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [ يوسف : ٩٥ ] ، ﴿ إِنَّكَ قَدِيمٌ ﴾ [ الأحقاف : ١١ ] وقد أطلق تعالى الخلود في النار على عذاب بعض العصاة ، كقاتل النفس ، وأطلقه النبي ﷺ على قاتل نفسه .

الوجه الثاني : أن العلم بانقطاع الدنيا ، ومجيء الآخرة ، إنما يعلم بالوحي ، ولم يتقدم لآدم عليه الصلاة والسلام نبوة يعلم بها ذلك . وهو وإن نبأه الله سبحانه وتعالى ، وأوحى إليه ، وأنزل عليه منها صحفاً ، كما في حديث أبي ذر ، لكن هذا بعد إهباطه إلى الأرض بنص القرآن ، قال تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [ طه : ١٢٣ ] وكذلك في سورة البقرة : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْي هُدًى ﴾ [ البقرة : ٣٨ ] .

وأما قولكم : إن الجنة وردت معرفة باللام ، غير مراد بها جنة الخلد قطعاً ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا<sup>(٣)</sup> مُصْبِحِينَ ﴾ [ القلم : ١٧ ] وقولكم : إن السياق ها هنا دل على أنها جنة في الأرض .

(١) أوردته في اللسان في مادة : خلد . سحُم : سود ، جمع : أسحُم .

(٢) العرجون : القضيب المنحني .

(٣) الصرم : القطع .

قلنا : والأدلة التي ذكرناها دلت على أن جنة آدم عليه السلام في الأرض ، فلذلك صرنا إلى موجبها ، إذ لا يجوز تعطيل دلالة الدليل الصحيح .

وأما استدلالكم بأثر أبي موسى : أن الله أخرج آدم [ عليه السلام ] من الجنة وزوده من ثمارها . فليس فيه زيادة على ما دل عليه القرآن ، إلا تزوده منها ، وهذا لا يقتضي أن تكون جنة الخلد .

وقولكم : إن هذه تتغير ، وتلك لا تتغير ، فمن أين لكم أن الجنة التي أسكنها آدم كان التغير يعرض لثمارها ، كما يعرض لهذه الثمار ، وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي - ﷺ - أنه قال : « لولا بنو إسرائيل لم يَخْنَزِ اللَّحْمُ »<sup>(١)</sup> أي : لم يتغير ولم ينتن . وقد أبقى الله سبحانه وتعالى في هذا العالم طعام العزيزِ وشرابهُ مئة سنة لم يتغير .

وأما قولكم : إن الله سبحانه وتعالى ضمن لآدم عليه السلام إن تاب أن يعيده إلى الجنة . فلا ريب أن الأمر كذلك ، ولكن ليس يعلم أن الضمان إنما يتناول عوده إلى تلك الجنة بعينها ، بل إذا أعاده إلى حنة الخلد ، فقد وفى سبحانه بضمانه حقَّ الوفاء ، ولفظُ العود لا يستلزم الرجوع إلى عين الحالة الأولى ، ولا زمانها ولا مكانها ، بل ولا إلى نظيرها كما قال شعيب لقومه : ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقد جعل الله سبحانه المظاهر<sup>(٢)</sup> عائدًا بإرادته الوطاء ثانياً ، أو بنفس الوطاء ، أو بالإمساك ، وكل منها غير الأول لا عينه ، فهذا ما أجابت به هذه الطائفة لمن نازعها .

(١) أخرجه مسلم (٦٣) في الرضاع : باب (١٩) لولا حواء لم تخن أنثى زوجها .

(٢) المظاهر: هو الذي يقول لزوجته أنت علي كظهر أمي .